وهذا هو الفرق بين المعصية والكفر .

إذن فالتعامل مع المشركين إن لم يتوبوا ولم يُصَلُّوا ولم يُزكُّوا ، ولم يقدر عليهم المسلمون ، ماذا يحدث ؟ . إن على المسلمين أن يحاولوا تطبيق ما أمر به الله سبحانه وتعالى بشأنهم .

ولكن ماذا إن استجار واحد من المشركين بالمسلمين ؟ .

وهنا ينزل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾

وبعد أن بَيَّن الله سبحانه وتعالى المهلة التى هى الأشهر الأربعة أو مدة العهد إذا كان هناك عهد . وبعد أن بين أن الكفار إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وقرنوا الإيمان بالعمل ؛ فالحق سبحانه وتعالى يغفر لهم ما قد سلف منهم ، وبين الله سبحانه وتعالى عظمة الإسلام والرحمة التى نزل بها هذا الدين ؛ فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلوا على حالهم ولم نقدر عليهم بأى عقوبة من العقوبات التى جاءت ، ثم جاء أحدهم مستجيراً بالمؤمنين فماذا يكون سلوكنا معه ؟

جاء الحكم من الله تعالى بأنه مادام قد استجار بك فأجره ، وإذا أجرته أسمعه كلام الله تعالى وحاول أن تهديه إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم ؛ فإن آمن واقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين ، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقتله؛ ولكن أبلغه مأمنه ، أى اسأله من أين جاء ؟ فإذا قال لك اسم القبيلة التى ينتمى إليها أو حدد المكان الذى جاء منه فتأكد أنه سوف يكون آمناً حتى يبلغ المكان الذى يجد فيه الأمان . وهذه هى المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر ،

وهى مرحلة الإجارة والتأمين للمستجيرين بالمؤمنين .

فالله سبحانه وتعالى تفضل على خلقه فى الأرض فأرسل إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرسال من سبقوه من الرسل. وكان الناس قد نسوا منهج السماء ، بل وحرَّف أهل الكتاب ما نزل إليهم من تعاليم .

وكان لابد أن تتدخل السماء بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد جعل فى الإيمان مناعات متعددة ، توجد أولا فى النفس ، فحين تستشرف النفس إلى معصية ، فالضمير الإيمانى يردعها عن تلك المعصية ويتوب الإنسان ويرجع إلى الله تعالى من ذات نفسه وبضميره الإيمانى وتلك هى النفس اللوامة . ومعنى وجود اللوم فى النفس هو أن الإيمان مازال موجوداً فيها ، وهذا الإيمان هو الذى يكبح الشهوة ويمنع النفس من الركون إلى المعصية ويرد صاحبه إلى الطريق الصحيح والمنهج السوى .

وهب أن نفساً ولعت بمخالفة المنج ولم تعد نفسا لوامة ، وتظل ترتكب المعاصى حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيمانى ، فتجدها قد عشقت ـ والعياذ بالله ـ مخالفة المنهج ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء ، وهنا ينقل الله المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصى يردعونه عن المعصية ، ويقفون منه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجفوة حتى يفيء إلى ربه يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان . أما إن فسد المجتمع كله ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فلابد أن تتدخل السماء برسالة جديدة وبرسول جديد مؤيد بمعجزة من السماء ليوقظ الناس من هذا السبات العميق الذى شمل الأفراد والمجتمعات .

وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وواجه هذا المجتمع الذى انتشر فيه الكفر أفراداً وجماعات كان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان ومجتمع الكفر ؛ ذلك أن

العداوة الشرسة واجهت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه المواجهة للرسول إنما جاءت من المنتفعين بالفساد فى الأرض . والمنتفعون بالفساد هم السادة الذين استفادوا من ضياع الحق وانتشار الباطل فأخذوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، واستأثروا هم بالمنافع وبما فيه الخير لهم ومنعوا ذلك عن باقى عباد الله .

والمنتفعون بالفساد يكرهون أى مصلح جاء ليعدل ميزان حركة الحياة فى الكون . فلابد أن يقفوا فى وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن منافعهم وأموالهم التى حصلوا عليها بالباطل والظلم ، ومن استعبادهم للناس . وكانت الجزيرة العربية فى ذلك الوقت مكونة من قبائل متعددة ، وكان لكل قبيلة قانونها الذى يضعه شيخها ليستأثر لنفسه بكل شيء .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة تربط بين هذه القبائل ، ولا يوجد قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عزوتها ولها شوكتها ولها حروبها . وكل فرد فى قبيلة لابد أن يكون مقاتلا يحمل سلاحه مستعدا للحرب فى أى وقت ، لأنه مهدد فى أى لحظة أن تغير عليه قبيلة أخرى ، إلا قبيلة واحدة هى قريش . فقد أخذت السيادة ولا يعتدى عليها أحد ولا تُهَاجَم قوافلها ، ولا تستطيع قبيلة فى الشمال أو فى الجنوب أن تهاجم تجارتها ؛لأن هذه القبائل كلها ستأتى فى يوم من الأيام قاصدة حج بيت الله الحرام فى مكة . وخلال الحج تكون هذه القبائل فى حاجة إلى الأمان من قريش ؛ ولذلك حرصت كل قبائل العرب أن تحافظ على علاقتها مع قريش ، لأن السيادة على بيت الله الحرام التى جعلها الله لقريش هى الضمان . وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحماية البيت الحرام من أى عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفياله ليهدم الكعبة ؛ جعله الله هو وجيشه كعصف مأكول مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

فإذا قرأت السورة التى بعد سورة الفيل مباشرة تجد أنها :

﴿ لإيلاف قريش (١) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢) فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤) ﴾ [قريش]

فكأن حفظ الكعبة من الهدم كان حفظاً من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش . ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والشكر وفهم هذه النعمة وتقديرها ، بدلاً من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المتعنت وتحاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلاً من ذلك فقد حدث العكس، وأحست قريش كذباً بأن الإسلام جاء ليهدد سيادتها فقامت تحاربه .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكن النداءات بالإسلام بعيدا عن هذه السيادة ؟ لأن الحق قد أراد أن تكون صيحة الحق فى جبروت الباطل وأن يواجه الإسلام فى أول أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية كلهم جميعا حتى يمحص الله قلوب المسلمين الأوائل . فهم من يحملون من بعد ذلك دعوة الإسلام فى العالم ؛ فلا يعتنق الإسلام منافق أو ضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين فى قلوبهم إيمان حقيقى ، ويتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم .

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يبدأ الإسلام فى مكة ولم يجعل الله له النصر من مكة، وشاء سبحانه وتعالى أن يجعل نصر الإسلام من المدينة؛ لأن قريشا لو انتصرت دعوة واحد منها فهم سيحاولون احتواءه ليسودوا به الدنيا ، وحينئذ سيقال : هم قوم قد تعصبوا لواحد منهم لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقاً وليس إيماناً حقيقيا . ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الإسلام من المدينة ليعلم الناس جميعاً ؛ أن العصبية لمحمد صلى الله عليه وسلم لم تخلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى خلق العصبية لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان

وبين سادة الكفر . وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :

المرحلة الأولى كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة الى المحبة ، والدعوة إلى المساواة . وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف . وهذه البداية لم تعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ويمعنون فى إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ؛ ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، فهاجر بعض من المؤمنين إلى الحبشة ، وأصبحوا يبحثون عمن يحميهم ويستجيرون به ؛ وشاء الحق تبارك وتعالى ذلك حتى لا يدخل الإسلام إلا من أُشرب قلبه حب الإسلام واستهان بكل الصعاب والاضطهاد والقتل والتشريد؛ وهؤلاء هم الذين سيصبحون مأمونين على الدعوة . وبعد ذلك ظل الكفر على كفره ، وظل الإيمان يأخذ إليه بهدوء بعض الأفراد ، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ؛ فقالوا : نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة فيها ما يسمى بالعرف الحديث «قطع العلاقات» ، فقال الحق عز وجل : ﴿ **قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)** ﴾ **[الكافرون]**

وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ؛لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة الكفار ؛ فهذا اعتراف منهم بأن آلهتهم حق ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لكان ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أن يحدث ذلك . وكان النهى هنا فى هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل . وهذا ما يسمى فى السياسة الدولية باسم قطع العلاقات ، بل إن قطع العلاقات الدولية إنما يكون بسبب طارىء ، أما الخلاف بين المسلمين الأوائل وأهل الشرك فلم يكن صراعاً بين فكر بشر وفكر بشر آخرين ، ولكن المسألة كانت صراعات بين منهج تريده السماء لأهل الأرض ، وبين المنتفعين بالفساد فى الأرض ؛ لذلك كان لابد أن يكون القطع نهائياً ، فلا لين ولا مهادنة

. ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، وهكذا فشلت حيلة الكفار فى تمييع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرهم ، وبقى الوجود الإيمانى قويا متحداً فى مواجهة جبروت الكفار بعد أن كان مهدداً.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة ؛ مرحلة اعتراف الكفر بقوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتمال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفر فى غزوة بدر ، وانتصر المؤمنون وأصبح لهم كيان يحميهم ، فلم يعودوا هم القلة الضعيفة المستذلة والمستكينة، بل أصبحت لهم قوة ولهم قدرة ، وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مواجهة الكفار أو قوة مساوية لهم ؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة .

وحين أصبح للإيمان هذه القوة والقدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار ؛ كانت هذه بداية المرحلة التى أعطت الإسلام تفرغاً لنشر الدعوة خارج محيط مكة ، وأمن المسلمون وهم ينشرون دعوتهم من هجوم الكفار وتنكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكان مجرد التعاقد والتعاهد هو اعتراف بدولة الإيمان ،وهى المسألة التى فطن لها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه وقد ظن البعض لأول وهلة أن معاهدة الحديبية كان فيها إهدار لحق المؤمنين ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : علام نعطى الدنية [1] فى ديننا .

هذه المسألة أخذت جدلاً كبيراً كاد يصل إلى أن يصادم المؤمنون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما رأت أم سلمة رضوان الله عليها خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من عدم إطاعة ما قاله لهم ، ووجدت الحزن الشديد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت :« يارسول الله لا تحزن . إن القوم مكروبون لأن أملهم أن يطوفوا بالبيت الحرام ، وها هم أولاء الآن على مقربة من البيت ولكنهم

(١) الدنية : أصلها الدنيئة بالهمزة ولكنها خُففت وهى صفة لمحذوف .. أى الحالة الدنيئة الخسيسة .

ممنوعون من الطواف به ؛ إن خير ما تفعله الآن ألا تكلم منهم أحداً ، وتنفذ ما أمرك به الله ؛ فإن فعلت عرفوا أن الأمر عزيمة لا نزاع فيه» ، هذا ما حدث. فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بذبح الهدى وتحلل من إحرامه وفعل المسلمون مثلما فعل ، وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى قبل أن يعود المؤمنون إلى المدينة ، أن يبين لهم سبب قبول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلح الحديبية مع ما يبدو ظاهراً وليس حقيقة من أن فيه إجحافاً بالمسلمين .

لقد كان الصلح ينص على أنه إن جاء أحد هارباً من قريش والتجأ إلى المدينة ردوه إلى قريش مرة أخرى . وإن فر أحد بعد إسلامه والتجأ إلى كفار مكة لا يردونه. وقد وجد البعض فى هذا إجحافاً وعدم مساواة ، وكان الموقف غاية فى الدقة ، وعندما جاء سهيل بن عمرو ليتفاوض على المعاهدة ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يكتب عن رسول الله وأملى: هذا ماتعاقد عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو . اعترض سهيل قائلا : لو كنا نؤمن بأنك رسول الله ما حدث بيننا هذا القتال ، ولكن اكتب : هذا ما تعاقد عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو. هنا ثار على بن أبى طالب رضوان الله عليه وقال : لا ، لابد أن نكتب هذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفض سهيل بن عمرو .

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينهى الموقف فنظر إلى على وقال :« يا على اكتب فإنَّ لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد» أىْ أنه سوف يحدث لك نفس الشىء الذى ترفضه الآن فتقبل ، وكان هذا من علامات النبوة لأن عليا وقف فعلا هذا الموقف عندما جاءت معاهدة صفين وأراد أن يكتب فيها هذا ما تعاقد عليه على بن ابى طالب أمير المؤمنين فقالوا له : لو كنت أمير المؤمنين ما حاربناك ، اكتب هذا ما تعاقد عليه على بن أبى طالب. وتذكر على بن أبى طالب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد ».

على أن الحق سبحانه وتعالى أراد ألا يدخل المسلمون المدينة إلا وقد صفت نفوسهم دون إحساس بأن منهم من انكسر وأن الآخرين قد انتصروا ، فنزل قول الحق

تبارك وتعالى الذى يزيل من النفوس المرارة : وينزل عليها السكينة والطمأنينة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

وهكذا أخبر الله المؤمنين بسبب عدم السماح لهم بدخول مكة لأن فيها عددا من المؤمنين والمؤمنات الذين يكتمون إيمانهم ، وهؤلاء غير مميزين لأنهم مختلطون بالكفار؛ وليس لهم مكان محدد بحيث يستطيع المؤمنون معرفتهم وتمييزهم ، فلا يتعرضون لهم فى قتالهم داخل مكة ، ولو نشب القتال فعلاً لتم قتل عدد كبير من هؤلاء المؤمنين والمؤمنات المقيمين فى مكة بأيدى المؤمنين ، ولكان عاراً أن يقتل مؤمن مؤمنا أومؤمنة .

هنا عرف الصحابة العلة وهى صيانة دم المؤمنين . وفى الوقت ذاته نجد أن صلح الحديبية جعل الدعوة الإسلامية تنتشر فى الجزيرة العربية كلها . وقد اعتبره بعض الصحابة رضوان الله عليهم الفتح الحقيقى للإيمان ، وجاء فى ذلك تلك المقولة المأثورة : «لا فتح فى الإسلام بعد فتح الحديبية» ولكن الناس لم يتسع فكرهم إلى الحكمة مما حدث ، والعباد دائما يعجلون . والله لا يعجل لعجلة عباده حتى يبلغ الأمر ما أراد . وقد انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية بالدعوة ، وزاد عدد المسلمين زيادة كبيرة .

إذن فمراحل الإيمان بدأت بمرحلة التعذيب والاضطهاد ، ثم مرحلة محاولة الخداع للقضاء على هذا الدين ، ثم المرحلة الثالثة وهى التعاهد والتعاقد ، ولقد وفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده ، ولكن قريشاً نقضت العهد بأن أعانت قبيلة بنى بكر وهم حلفاؤها على قبيلة خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام بنو بكر بمهاجمة قبيلة خزاعة وقتلوهم وهم يصلون ، وذهب مندوب قبيلة خزاعة مستنجدا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهاء

المعاهـدة التى أبرمت بينه وبين قريش لنقض قريش العهـد وأعد جيشاً لفتـح مكة وتطهير البيت الحرام من الأصنـام ، وبعد أن تم فتح مكـة فى العـام الثامن الهجـرى ، أراد الله سبحانـه وتعالى أن يطهر بيتـه من المشركين وأن يعلن أنه لا مهـادنة بين الإيمان والكفر .

لقد أراد الله أن يحرر «المكـان» وهو أرض الكعبـة أولاً ، ثم يحرر «المكين» وهم البشر فلابد ـ إذن ـ أن تتطهر الكعبـة من الأوثان ، وأن يُمنع العراة من الطواف حول البيت الحرام ويُمنع المشركـون من الوجـود فى البلد الآمن بـالإسلام . وسبق حج رسـول الله صلى الله عليه وسلم قطع العلاقات وإنهاء المعـاهدات، لكن سماحة الإيمان وحب الله لخلقـه جميعا لم يجعلـه يأمر الـرسـول صلى الله عليه وسلم بقطع المعـاهدة فـوراً ، أو أن يقاتل المؤمنون المشركين ويأسروهم فوراً ، لا ، بـل منحهم أربعة أشهرلعلهم يفيئون إلى الإسلام وأن يتوبوا إلى بارئهم .

لقـد بين سبحـانه وتعـالى للكـافـرين أن هـذه المدة لن تفيدهم فى حـربهم ضـد الإسـلام ؛ لأنهم غير معجزى الله فى الأرض ، أى لن يعجـز الله استعدادهم أو مكـرهم أو أى شىء يفعلـونـه خـلال هذه الأشهـر الأربعـة ، فإذا انتهت هـذه الأشهـر وقعت العقوبـة على الكفار إما بـالقتل وإما بالحصار ، أو بـالترصد ، أو عليهم أن يدبـروا أمر حياتهم بـالسياحة فى الأرض مادامـوا قد أصروا على الكفر ؛ لأن حكماً من الله قـد نزل بعدم وجود المشركين فى هذه البقعة المقدسة .

وأراد الحق سبحانـه وتعالى بـرحمته أن يبقى الباب مفتـوحاً للكفـار لكى يعودوا إلى منهجه فقال عز وجل :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّـهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [التوبة]

وبعـد انقضاء مـدة الأشهر الأربعـة ، اذا استجـار بك أحد من المشركين فأجـره ، ونحن نعلم فى اللغـة العربيـة أنّ «إنْ» الشرطيـة لا تدخل إلا على فعل ولا تـدخل على

اسم أبداً ؛ فتقول : إن قام زيد قام عمرو ، وأما «إنْ» فى قوله تعالى :

﴿ إنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢]

فهذه ليست «إن» الشرطية ؛ ولكنها «إنْ النافية » وهى مع «إلا» التى بعدها لإفادة التأكيد والقصر ، أى قصر الأم على الوالدة ، إلا أنه من بلاغة إعجاز القرآن الكريم جاء بعد «إن»الشرطية اسم فى قوله تعالى :

﴿ وَإنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة : ٦]

وكان القياس أن يقال: «إن استجار بك أحد المشركين فأجره »؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جاء بـ «أحد» بعد «إن» فى أول الكلام ، ولذلك فعندما نعرب كلمة «أحد» فى الآية الكريمة السابقة نعربها فاعلاً ونقدر له فعله من جنس المتأخر ، والتقدير هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره .

ولماذا هذه اللفتة من القرآن الكريم ؟ نقول : إن هناك مستجيراً وهنا طلب استجارة ؛ فهل الاستجارة عرف بها المستجير، أم عُرفت الاستجارة منه ؟.

وأقول : لنفرض أن واحداً من المؤمنين قد جلس على الحدود قرب أماكن الكفار ، ثم سمع صوتاً يقول : أنا مستجير بمحمد ، ومستجير بالمؤمنين ، ومن بعد ذلك ظهر المستجير بجسده أمام المؤمنين ، هنا تكون الاستجارة قد سبقت ظهور المستجير ، وكأن الأذن هى التى استجيرت أولاً ثم رأت العين جسد هذا المستجير ، وقد يختلف الأمر ؛ فيظهر المستجير أولاً ، ثم يصرخ طالباً الأمان والاستجارة ، وبذلك تكون العين قد رأت أولاً ثم سمعت الأذن طلب الاستجارة ثانياً.

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أهمية الالتفات إلى صدق الاستجارة ، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يصرخ المستجير أولاً ، ويظهر من بعد ذلك ، ولابد أن يأخذ المؤمن حذره حتى لا ينقلب عليه المستجير أو يكون قد خدعه بطلب الاستجارة .

والاستجارة تعنى طلب الجوار والحماية ، ولهذا فعادة ما يكون المستجير ضعيفاً

لا يقـــــدر على حماية نفسه . وحين يستجير إنسان بآخر في مثل تلك الظروف ، فعلى المجير أن يملك الفطنـة ليتعـرف على الهدف من الاستجـارة ؛ أهى استجـارة لمجـرد تطويل أمد البقاء على الكفر ؟ أم هـى رغبة فى معرفة أسس الإيمان كما وردت فى كتاب الله تعـالى ، أو أنه يـريـد أن يسمع حكم الله على الكفار فى سـورة بـراءة . أو يريـد أن يسمع كلام الله بما يقـذف فى قلبه الإيمان ، أو أنه يـريد أن يسمع شيئـا فيما يطلب فيه الدليل ، أو يسمع كلام الله فيما يرد عليه الشبهة ؟.

إن فطنـة المؤمن يجب أن تتسع لتسبر أغوار المستجير ، وطلب الجوار أو الاستجـارة كان معروفـاً عند العرب ، فإذا استجار شخص بعـدوه فعليه أن يجيره، وهذا دليل على شهـامته . وإذا كـان الإيمان قـد فرض على المسلمين إجـارة من يطلب الجوار ، فهـذا دليل على قوة الإيمان وعظمتـه وسماحته ، ولعل خميرة الإيمان الفطـرى فى نفس الكفار قد استيقظت وتطلب معرفة قواعد الإسلام .

إن على الـــوالى أو أى واحـــد من المسلمين أن يجيرالمستجير ، ولماذا لا نسمعــــه ونتكلم معه علـه يؤمن ، ويدخل حظيرة الإسلام وفى الإسـلام يجير الوالى أو أى واحد من المسلمين ؛ لأن المسلمين تتكـافأ دمـاؤهـم ولا يـوجـد دم سيـد ودم عبـد ، ولا دم شريف ودم رخيص ؛ وإنما يسعى بذمتهم أدناهم ، ولـذلك إذا أجار أى مسلم إنساناً غير مسلم أو إنسـانـاً كـافراً يجار من جميع المسلمين ؛ حتى الصبى الـذى لم يبلغ الحلم وحتى المجنون الذى لا يعقل . لهذا أو لـذاك أن يجير بشرط أن يوافق الوالى أو المسلمون على ذلك . لمـاذا ؟ لأنـنـا نأخذ على الكفر أنه يغـدر بالتعاهد ويتناسـى المروءة، فلابد أن نتمسك نحن المـؤمنين بالعهـد ، فإذا استجـار أحـد من الكفـار فـلابـد أن نفى بالعهد .

ولكن كيف يكون للصبى والمجنون حق الإجارة ؟ . نقول : إن الصبى من المؤمنين انتفع بالإسـلام لأنه تمت تربيتـه تربيـة إيمانية وفقاً لمنهج الله ونشأ فى ضـوء قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤]

بل إن الإسلام يعطى التربية الإيمانية للابن حتى قبل الحمل ، فيأمر الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعاء صالحاً ، ويأمر الأم أن تختار الرجل المتدين ليكون أباً صالحاً .

إذن فالإسلام يخدم الصبى قبل أن يولد باختيار الأب الصالح والأم الصالحة ، ويخدمه بعد أن يولد بتربيته التربية الإسلامية السليمة ، وعلى ذلك فالصبى قد استفاد بكل هذه القيم من الإسلام ، والذى بلغنا منهج الإسلام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فالتربية الإسلامية لنا جميعاً ؛ لذلك يجب علينا أن نرد التحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمنا أن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . فلو أن صبيا أعطى الأمان لكافر جاء ليسمع كلام الله ؛ قبلت منه هذه الإجارة أو هذا الأمان ، ذلك أن الصبى استفاد من تربية إسلامية جاء بها المنهج المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من أمه التى تحملت حمله وآلام وضعه ، ولولا أن الإسلام حمى النفس حين توجد فى الرحم لأمكن للمرأة حين يتعبها الحمل أن تجهض نفسها أو أن تطرح الصبى بعيداً ، ولكن الإسلام حمى الطفل وهو فى بطن أمه ، وحماه حتى تكتمل رضاعته ، وتمتثل الأم المسلمة لكل أحكام الإسلام :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

لقد احترم الإسلام الطفل ، وسانده ، وطلب من الأب والأم أن يحسنا تسمية أولادهما وأن يحسنا تربيتهما .

وقبل أن يوجد هذا الطفل فى رحم أمه حماه الإسلام ـ كما قلنا ـ بأن أمر الرجل أن يختار الأم الصالحة ؛ لتكون وعاء صالحاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه أبو حاتم المزنى قال :

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض

وفساد كبير» قالوا يارسول الله وإن كان فيه ؟ قال «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات[١].

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : فى حديث له :

«فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

والحديث فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه يقول : قال صلى الله عليه وسلم «تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك» [٢]

فإذا كان الإسلام قد احترم هذا الصبى فى كل حقوقه ، ألا يحترمه المسلمون ؟.

وقد يقال إن الصبى منتفع بالإسلام ، أما المجنون فلا عقل له حتى إن الله عز وجل قد أعفاه من التكاليف ، ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول،صاحب العقل قصارى مايصل إليه أن تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأن يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد ، أما المجنون فهو يصل إلى هذا ؛ لأنه إن قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإن فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

إذن فالمجنون قد أخذ حظا أكثر مما يأخذه العقلاء ، وصار جنونه حماية وحصانة له إن قال كلمة الحق التى قد تؤذى ذوى النفوذ فلا يعاقبه أحد، ويكفى أن يقال إنَّه مجنون حتى يعفى من العقاب ، ورب كلمة حق واحدة تصدر من مجنون ؛ تكون أرجح عند الله عز وجل من أصحاب عقول كثيرة ظلوا طوال حياتهم ينافقون ويكذبون ويفعلون ما يغضب الله .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

إذن فهناك مهمة فى الحيـاة قد يؤديها المجنون ولا يـؤديها العاقل ، لأن بعض الناس يعتقد أنه إذا سلب الله أحد البشر شيئا فإنـه يميز عنه الآخرين ، نقول : لا ، لأن عدل الله يأبى إلا أن يعوضه ، ولذلك تجد من فقـد عينيه يجعل الله عز وجل عيون الناس فى خدمتـه ؛ هذا يأخذ بيده؛ وهـذا يقوده فى الطريق ، وهذا يحضر لـه الطعام والشراب ، وهذا يسقيه ... إلخ

وإن كان الإنسان أعرجَ مثلاً ، تجد هذا يعاونـه ، وهذا يأخذه معه فى سيارته ، وقد تقف له سيارة أجرة تأخذه إلى حيث يـريد . بينما يقضى السليم الساعات يبحث عن سيارة الأجـرة بلا فائدة . بل إنـك إن نظرت إلى الفقير تجد أنَّ الله قد جعل لـه عدداً من الأغنياء فى خـدمته ، ففلان يحرث ويعـزق ويعطيه الله خير الزراعـة ليبيعه ويفيض منـه على الفقير ، وآخر يصنع ويتعب ويشقى ليعطى بعضـاً من دخله للفقير ، بل إنـه يشقى مرة أخرى ليعثر على الفقير حقا ليعطيـه بعضاً من ماله ، والفقير بالفعل يستحق أن يأخـذ شريطة ألا يكـون مدعيـا للفقـر . فما دام قد قبل حكم الله بـالفقر والعجـز ، يـوضح له ربـه : لقـد رضيت بأنى أعجزتك ، فخـذ من قـدرة الأغنياء مـا يعينك فى حيـاتك ، فهـذا مُلْكٌ كَـوْنى لـه نظـام ، وأقـول ذلك حتى نفهم أن الغنى والفقَـر ، والصحـة والمرض ، والقوة والضعف ، إنما هى أغيـار ، ولـذلك لا أحد يضمن غَـدَهُ ، وعلى الواحـد منا إن كـان قادراً أن يعطى الفقير، حتى إذا ضـاع منا المال وجـدنا من يعطينا ، وأن نسـاعد المريض ، حتى إذا مـرضنا وجـدنا من يسـاعدنـا ، وأن نكون فى خدمـة الناس وقت شـدتهم حتى يكونـوا فى خدمتنـا وقت شدتنا . وفى نفـس الوقت حين نرى من حرمه الله من البصر يجب علينا أن نشكر نعمة الله علينا ، ولو رأينا إنساناً يعانى فى مشيه تنبهنا إلى نعمة الله فى أن أعطانا قدرة المشى.

وهكذا فـالإنسان لا يتنبه إلى النعمـة إلا إذا رأى من هو محروم منهـا . وكذلك أراد الحق أن يرضى كل ذى آفة قَبل آفته ولم يتمرد عليها ؛ لذلك يفيض عليه بالخير.

إذن فكل إنسـان أسلم يستفيـد من الإسـلام حتى الصبى والمجنـون استفـادا من

الإسلام . ونـذلك فلابـد أن نرد التحية لمن بَلَّغنـا هذا المنهج الـذى أعطانـا الحماية ، فنقرأ المنهج ونعمل به .

وحين نستقـرىء حيـاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، نجـده يـرد جميل كل من ساعده ، ومثـال ذلك حليمة السعدية التى نالت شرف إرضـاعه صلى الله عليه وسلم وهو صغير ، ثم أكرمها الرسول هى وأسرتها بعد أن صار نبيا .

ثم ألم يـذهب رسـول الله صلى الله عليــه وسلم إلى الطـائف ليطلب النصير لـه فى تبليغ الدعوة بعد وفاة خديجة رضى الله عنهـا ووفاة عمه أبى طالب ، وعز عليه النصير وفكر فى العودة إلى مكـة ، والتمس من يجيره حين يدخلها فأجاره واحـد من الكفار هو المطعم بن عدى ، فإذا كان كـافرٌ قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم الـذى يدعو لمحاربة الكفر ؛ أفلا نجير واحداً من الكفار لنرد التحية بخير منها ؟

وإذا كان واحـد من الكفار قد أجار رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة فـلابد أن يـرد المؤمنـون كلهم التحيـة بأن يجيروا من يستجير بهم من الكفـار . وبعـد أن يجير المسلمـون من استنجد بهم مـن الكفار على أن يسمعـوه كـلام الله . وبعد ذلك هنـاك أحد أمرين إمـا أن يعلن الكافر الإيمان ، وفى هذه الحالـة أصبح من المؤمنين ، وإما أن يصر على كفره وعناده ، وفى هذه الحالة يصبح على المسلمين مسئولية أن يبلغوه مأمنه ، وذلك بأن يساعـدوه على الوصول إلى المكـان الذى يصبح آمنـا فيه على نفسه ومـاله ، وبعد أن يبلغ مأمنـه ويسمع كلام الله فليس على المسلمين أن يطلقوا سراحـه كما كان الأمر من قبل : ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

لا ، بل على المسلمين أن يبلغـوه مأمنه ، ثم ينفـذون فيـه حكم الله إما أسراً ، وإمـا حصاراً ، أو قتلاً ؛ حسب الحكم النازل من الله . وعلة تأمين الكافر هى أنه من قوم لا يعلمون حسبما قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦]

إذن فالإيمان ليس بالفطرة فقط ؛ لأن العلم لـه وسائل كثيرة ؛ علم بالفطرة ، وعلم بالاكتساب ، ومرة تكون أداة العلم الأذن ، ومرة بـالعين ، ومرة بالعقل ، والمعلـومات كلها تنشأ عنـد الإنسان إمـا بالأذن ممـا يسمع ، وإما بـالعين مما يرى ، ثـم بعد ذلك تستقر المعانى فى نفس الإنسان .

ولذلك يقـول الحق سبحانـه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨]

وهكذا حدد لنـا القرآن الكريم وسائل العلم بـالسمع والبصر ، فإذا استقرت هذه المعلـومات فى الفـؤاد ، لأنه الـذى يحفظ كل القضايـا العقلية والفكـرية . وإذا كـان الإنسان يسمع ولا يفقه شيئا فهو لا يعلم .

إذن فالمستجير جاء ليطلب وسائل العلم وأدلة الإيمان ؛ وعذره أنه لا يعلم .

وعلينا أن نحسن الظن وأن نعتبر المستجير طـالب علم بالحقيقـة ، ويريـد أن يأخذ أدلة الإيمان .

ثم يعود الحق سبحانه وتعالى إلى مسألة العهد فيقول :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝ ٧ ﴾

أى لقد جربتم العهـود مع المشركين ، وفى كل مرة يعاهدونكـم ينقضون عهدهم ، وقد نقضوا عهـدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاهـدة الحديبية ، إذن فالله سبحانه وتعـالى يريد أن يلفتنا إلى أننـا يجب ألا نأمن لعهود المشركين لأنهم لا يحفظون

العهـد ولكنهم ينقضونـه ، وعلى ذلك فعلة نقض العهـد أنهم لم يستقيموا للعهـد من قبل . ويكون بقاء العهد هو الأمر العجيب .

و«كيف» هنـا للاستـــفهام عن الحالـة ، يقـال : كيف حـالك ؟ . تقـول : بخير والحمد لله . إذن فـ «كيف» يُسأل بها عن الحال ، والحال قـد يكون عـاما ، أى كيف حالك وحـال أسرتك وأولادك ومعيشتك إلى آخره ، وقـد يكون خـاصا أن تسأل عن مريـض فتقول : كيف حال فـلان ؟ . فيقال : شُفى والحمـد لله . أو تسأل عن معسر فتقول كيف حـاله ؟ . فيقـال : فرّج الله ضائقتـه . أو تسأل عن ابن ترك البيت هـارباً فيقال : عاد والحمد لله .

إذن فـ «كيف» إن أطلقت تكون عـامـة ، وإن خصصت تكون خـاصة ، ولكنهـا تُطلق مرة ولا يـراد بها الاستفهام ، بل يراد بها التعجب ؛ إمـا تعجب من القبح ، وإما تعجب من الحسن . كأن يقـال لك: كيف سب فـلان أباه ؟ . هنـا تعجب من القبح لأن مـا حـدث شيء قبيح ما كـان يصح أن يحدث . وتأتى لإنسـان اخترع اختراعـاً هامـاً وتقول : كيف وصلت إلى هذا الاختراع ؟. وهـذا تعجب من الحسن . والتعجب من القبح يكـون تعجب إنكـار والتعجب مـن الحسن يكـون تعجب استحسـان كأن نقول : كيف بنيت هذا المسجد ؟ وفى هذه الآية الكريمة يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ [التوبة : ٧]

وهذا تعجـب من أن يكون للمشركين شيء اسمـه عهد ؛لأنهم لا يعرفـون إلا نقض العهد ، ولا يتمسكـون بالعهـود ولا يحترمونها ، إذن يحق التعجب من أن يكـون لهم عهد بينها فى الحقيقة لا عهد لهم .

وهذا التعجب للاستهزاء والإنكار، فأنـت مثلا إذا جاء أحد يهددك، فقلت له: من أنت حتى تهددنى؟. يكون هـذا استهزاء واستنكارا لأنك تعرفه، وأيضا تستهزىء أن يملك القـدرة على أن ينفـذ تهديـده لك. ومرة تكـون استفهـامـا حقيقيـا، كأن تسأل إنسانا لاتعرفـه: من أنت؟. فيقول لك: أنا فلان بن فلان. وأحيانـا تكون الإجابة عن الكيفية بالكلام، وأحيانا لاينفع الكلام فلابد أن يجاب بالفعل.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

كيف هذه تحمل معنى التعجب الاستحسانى؛ لأنك إذا بعثت الحياة فى ما لا حياة فيه؛ فهذه مسألة عجيبة تستوجب الاستحسان. ولم يجب سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم باللفظ، بل أجاب بتجربة عملية، ودار حوار بين الحق سبحانه وتعالى وخليله إبراهيم عليه السلام فسأله المولى سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

رد إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى أننى يارب آمنت، وأضاف القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

والإيمان هو اطمئنان القلب، فكيف يقول إبراهيم آمنت؟ أليس فى ذلك تناقض؟. وأقول: إن إبراهيم واثق من أنَّ الله سبحانه خلق الكون كله ولكنه يريد أن يعرف كيفية الإحياء وكيف يحدث، حينئذ لم يجبه الحق سبحانه وتعالى بالكلام، بل أراه تجربة عملية، فقال له:

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى عليك أن تختار أربعة طيور وتضمها إليك وتتأكد من شكلها حتى إذا ماتت وأحييت تكون متأكدا من أنها هى نفس الطير.

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى قطّع هذه الطيور بنفسك، وضع على كل جبل قطعة، وبعد ذلك ادْعُها أنت تأتك سعياً أى مشياً، حتى لايقال إنها طيور قد جاءت من مكان آخر، بل تجيئك نفس الطيور سيراً، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطى القدرة لمخلوق عندما يستدعى الميت أن يأتيه حيا، فما بالك بقدرة الله عز وجل؟

إذن فقول الحق: سبحانه وتعالى

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٧]

وهذا استفهام للإنكار والتعجب من أن المشركين ليس لهم عهد، بل تمردوا وتعودوا دائما على نقض العهود ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]

أى أن الله عز وجل وهو يخبر المؤمنين بأن هؤلاء الكفار لاعهد لهم، لايطالب المؤمنين أن يواجهوا المشركين بالمثل، بل يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يحافظوا على العهد مادام الكافرون يحافظون عليه، إلى أن يبدأ الكافرون فى نقض العهد وهنا يلزم سبحانه المؤمنين أن يقابلوا ذلك بنقض مماثل وهذا مايفسره قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية، إذن فأساس التقوى هو ألا ينقض المؤمن عهداً سواء مع مؤمن أم مع كافر، وإنما الذى يبدأ بالنقض هو الكافر، وعلى المؤمن أن يحترم العهد والوعد.

ويقول الحق تبارك وتعالى من بعد ذلك:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ«كيف»، لأن غدرهم صار معروفا، وكانت «كيف» الأولى استفهاما عن أمر مضى.

والتساؤل هنا يـوضح لنا أنهم سيخونون العهـد دائما، كما فعلوا فى الماضى، فكأن الذى يخبر فى الماضى يخبر أيضـا عن المستقبل ويعلم مـايكـون منهم. ويتابع المولى سبحـانـه وتعالى قوله: ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ [التوبة: ٨]

ومعنى «يظهروا»، أى يتمكنـوا منكم، وهم إن تمكنوا من المؤمنين لايـرقبون فيهم إلاّ ولا ذمّـة، و«يـرقب» من الـرقيب الذى يـراقب الأشيـاء. إذن فهم لايـراقبـون بمعنى لا يراعون، أى أنهم لـو تمكنوا من المؤمنين لا يراعون ذمة ولا عهدا ولا ميثـاقا، بل يستبيحون كل شىء. وهذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عما فى نفوس هؤلاء الكفار من حقد على المؤمنين.

ونـــلاحظ أن كلمـة «يــرقبـــون» غير «ينظـرون»، وغير «يبصرون»، وهى أيضـــا غير «يلمحون» وغير «يرمقـون»، مع أنها كلها تؤدى معنى الرؤيـة بالعين، ولكن يرقب تعنى يتأمل ويتفحص باهتمام حتى لاتفوته حركة، لـذلك إذا قلنا: إن فلانا يراقب فلاناً، أى لاتفوته حركة مـن حركاته وهو ينظر لكل حركة تصدر منـه. أما كلمة «نظر» فتعنى رأى بجميع عينيه، وكلمـة «لمح» تعنى رأى بمؤخـر عينيه، و«رمق» أى رأى من أعلى. وقـوله سبحانه وتعالى «لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمّـة» يعنى لا يراعون فيكم عهداً، ولا يمنع الواحد منهم وازع من أن يفعل أى شىء مهما كـان قبيحا؛ والمثال: أن يـرفع الرجل القـوى يده ليضرب طفلاً صغيراً لا يتحمل ضربته، هنا يمسك أحـدهم بيده ويطلب منه أن يراعى أن الطفل صغير لا يتحمل الضرب، وأنه ابن فـلان قريبه، وأنهم جيران؛ فلا يـراعى هذا كله، وإنما ينهال على الطفل ضرباً.

وقـوله سبحـانه وتعـالى: «إلاّ» هى فى الأصل اللمعان أى البريق، و«إلاّ» أيضـاً هى الصوت العالى، واللمعـان والصوت العالى لافتان لوسـائل الإعلام الحسّية، وهى الأذن والعين، والإنسان إذا عاهد عهداً فهذا العهد يصبح أمـراً واضحاً أمامه يلفت عيونه كما يلفتها الشـىء اللامع، ويلفت أذنـه كما يلفتها الصـوت العالى، وسُمى العهـد والكلام «إلاّ» لأنه معلوم بالعين والأذن.

هذا هو المعنى اللغوى، لكن المعنى الاصطلاحى لكلمة «إلاّ» هو الغضب، بأن تشد

شيئا كأنك تغصبه على عدم الالتصاق بشيء آخر، ولذلك سُمِّى سلخ جلد الشاة غصباً لأن اللحم ملتصق بالجلد، وسُمى أخذ المال غصباً؛ لأن صاحب المال متمسك بماله تمسك الشاة الحية بجلدها. وإذا أطْلِق الغصب فى الفقه لا ينصرف إلى المعنى اللغوى وهو اللمعان والصوت العالى، وللعلماء فى هذا المعنى أكثر من رؤية، وكل واحد منهم أخذ لقطة من الـ«إل» وأصله اللمعان، ألّ.. يؤلّ.. إلاًّ، بمعنى لمع.. يلمع.. لمعاً. والـ«إل» أيضاً هو الصوت العالى، وقال ابن عباس والضحاك رضى الله عنهما: إن «إلاّ» هى القرابة؛ لأن القرابة سبب للتراحم، فأنت يعز عليك أن تخون قريباً لك؛ لأن القرابة لا تحتاج إلى عهد، وقيل إن «إلاّ» هى العهد.

وقال سيدنا الحسن: إن «إلاّ» هى الجوار وما يوجبه من حقوقه. وقال قتادة: إن «إلاّ» هى الحلف والتحالف. وقال أبو عميرة: إن «إلاّ» هو اليمين أو القسم.

والمعانى كلها تلفتنا إلى وجود نوع من التراحم، بحيث لا تتملك الإنسان القسوة أو انفلات الانفعال، وليجعل الإنسان لنفسه من يقول له: «اهدأ إنه جارك أو من قوم بينهم وبين من تعاهدون صلة قرابة»؛ لأن الذى يجعل الإنسان لا يميل إلى الشر ولا يستشرى فيه ساعة يحفزه الأمر؛ هو مراعاة الملابسات كلها، وهكذا يتدخل الحوار، ولكن قد توجد قرابة أو عهد أو قسم أو جوار ليمنع البطش بقسوة، أى إن «إلاّ» هو الأمر الذى يمنع الرد بقسوة على شىء قد يكون وقع خطأ. والمعنى أيضاً هو عدم احترام لكل القيم؛ عدم احترام للقرابة أو الجوار أو العهد أو القسم، فإذا تمكن رجل قوى من طفل صغير لم يراع فيه أيا من هذه الأشياء.

ويريد الحق أن نعلم أن المشركين إذا تمكنوا من المؤمنين فهم لا يراعون فيهم قرابة ولا عهداً ولا حلفاً ولا جواراً ولا قسماً ولا أى شىء. إذن فكيف يكون للمشركين عهد؟ وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يراعون فيهم شيئا أبداً.

ثم يضيف الحق سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]

والذمة هى الوفاء بالأمانة التى ليس عليها إيصال ولا شهود، فإذا اقترض واحد

مبلغاً من شخص آخر وكتب إيصالاً عليه بذلك المبلغ، فهذا الإيصال هو الضامن للسداد، وكذلك إن كان هناك شهود فشهادتهم تضمن الحق لصاحبه. ولكن إن لم يكن هناك إيصال ولا شهود، يصبح الأمر موكولاً إلى ذمة المقترض؛ إن شاء هذا المدين اعترف بالقرض، وإن شاء أنكره، وهناك ذمة أخرى هي التي بينك وبين نفسك، والمثال على ذلك قد تعاهد نفسك بأن تعطى فلاناً كل شهر مبلغاً من المال، وهذا أمر ليس فيه عهد مكتوب أو شهود لكنه متروك لذمتك، إن شئت فعلته، وإن شئت لم تفعله. وما في الذمة - إذن - هو شيء إنْ لم تفعله تُفضَح، مثال ذلك: أن تقرر بينك وبين نفسك أن تساعد أسرة ما، وهذا أمر خاضع لإرادتك، فلا عهد يجبرك على ذلك ولا قرابة ولا جوار، لا شيء إلا ذمتك، ولذلك فأنت تراعي الوفاء بما وعدت نفسك به لتحافظ على سمعتك ورؤية الغير لك. وكذلك أيضاً حين تأخذ ديناً بلا إيصال منك أو شهود عليك، ولكنك تحرص على أن ترده لأنه في ذمتك.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾ [التوبة]

وهكذا نعرف أن «كيف» هنا تعجب من أن يكون للمشركين الآن أو في المستقبل عهد لأنهم يحترفون نقض العهود ولو تمكنوا من المؤمنين فهم ينكلون بهم أبشع تنكيل دون مراعاة لأي اعتبار، وقد يقول قائل: إنهم معنا على أحسن مايكون؛ بشاشة وجه وحسن استقبال إلى آخره، فكيف إذا تمكنوا منا انقلبوا إلى وحوش لاترحم؟. ونقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم مايظهر ومايخفي، وقد علم مايدور في خواطر المؤمنين فرد عليهم حتى لايترك هذه الأشياء معلقة داخل نفوسهم، ولذلك يريد سبحانه وتعالى على هذا الخاطر:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

أي أن الله عز وجل ينبه المؤمنين ويحضهم ألا يصدقوا الصورة التي يرونها أمامهم من المشركين؛ لأنها ليست الحقيقة، بل هو خداع ونفاق؛ فهم يقولون القول الحسن،

ويقابلونك بوجه بشوش وألفاظ ناعمة، لكن قلوبهم مليئة بالحقد عليكم أيها المسلمون بحيث إذا تمكنوا منكم تظهر مشاعرهم الحقيقية من البغض الشديد والعداوة، ولا يرقبون فيكم إلاّ ولا ذمّة. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة : ٨]

فعلى المؤمنين أن يصدقوا ما جاء من الحق، ويكتشفوا أن اللسان الحلو وحسن الاستقبال ليس إلا خداع، من هؤلاء الأعداء، وهو سبحانه بهذا الكشف إنما يعطينا مناعة بألاّ ننخدع بما نراه على وجوههم؛ فهذا مجرد أمر استقبالى، لا يمثل ماضياً أو حاضراً، وحين يبرم سبحانه وتعالى أمراً استقباليا فهو يخبر به عباده المؤمنين، ولذلك نجده سبحانه وتعالى يرد بنفس الأسلوب على هذه الخواطر والمثال: فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾

[التوبة : ٢٨]

والبلاغ هنا نهى عن دخول المشركين المسجد الحرام أو اقترابهم منه، ومن الطبعى أن تدور الخواطر هنا فى نفوس عدد من المؤمنين الذين يستفيدون من المشركين فى مواسم الحج، لأنهم أمة تعيش على اقتصاد الحج، حيث يبيعون السلع لهؤلاء القوم ليكسبوا قوت العام، فإذا ماتم منع المشركين من الحج أو الاقتراب من المسجد الحرام، فمن أين يأتى الرزق الذى يحصلون عليه من البيع لهم؟ ولابد أن يفكر المؤمنون: من أين سنأكل؟. نحن نحضر بضاعتنا وننتظر طوال الموسم حتى الحج؛ فإذا نقص عدد الحجاج فلمن نبيع؟.

فيرد الله سبحانه وتعالى على هذه الخواطر بقوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٢٨]

أى لا تخافوا الفقر، لأن الله يعلم ما سوف يحدث، والله هو الغنى وعنده مفاتيح كل شىء وسوف يغنيكم من فضله ويفتح لكم باب الرزق مما يعوضكم وزيادة. وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على الخواطر التى تدور فى نفس المؤمن ساعة نزول القرآن؛ حتى

تطمئن قلوب ونفوس المؤمنين فيقول عز وجل:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

وفى هـذا القـول رد على الخواطر التى دارت فى نفـوس المؤمنين؛ وهم يـرون المشركين يسـتقبلونهم بألفاظ نـاعمة ووجوه تملؤها البشاشـة، فأوضح لهم الحق سبحانه وتعالى: لاتنخدعوا فيا فى القلوب عكس ما هو على الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

يبين أنهم بعيدون عن المنهج ، فالفسق هو الخروج عن الطـاعة، وهل الكافر والمنافق له طاعة؟.

نقـول: إنك إن نظـرت لهؤلاء تجدهم خـارجين حتى عـن المنهج الـذى اتخذوه لأنفسهم؛ فهم لايلتـزمون بمنهج البـاطل الـذى يعتنقونـه، إذن فهم فاسقـون حتى فى المنهج الذى ينتسبـون إليه، فإذا كـانوا كذلك مع منهج البـاطل، فكيف بهم مع منهج الحق؟.

وقولـه تعالى: ﴿وأكثرهم فـاسقون﴾ يوضح بأنـه قد تكون هنـاك قلة ملتزمـة، وهذا احتيـاط قرآنى جميل، كما أنها ردت على السـؤال الـذى قد يتبـادر إلى الذهن أن هـؤلاء كافرون ـ وليس بعد الكفر ذنب ـ فكيف يقال إنَّهم فاسقون أى عاصون أو خارجون عن الطاعة وهم غير مؤمنين أصلا؟.

نقول: إنهم خارجـون حتى عن مناهج الكفر التى اختاروهـا لأنفسهم، ولذلك يبين الله سبحانه وتعالى وضعهم حين يقول:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ ﴾

وهكذا يرينـا الله عز وجل انقلاب المعايير عنـدهم، فما الشراء؟. الشراء هو: الحصول